نظرية النظم والنظرية التحويلية التوليدية:

لقد كانت نظرة عبد القاهر الجرجاني بعيدة المدى ،ما جعل أفكار تشومسكي تلتقي معها في الكثير من النقاط ؛إذ رفض تشومسكي المنهج الوصفي في النحو، ورأى أنه لا يدرك الجوانب الإنسانية في اللغة وذكر الواقع اللغوي عبر التعامل مع الآخرين، وربط اللغة بالجانب العقلي، وهو ما أشار إليه عبد القاهر الجرجاني حينما عرض نظرية النظم، وتشابه فيها مع فكرة التحويل والتوليد. فالجرجاني يرى النظم قائم على معاني النحو، وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون منه، وهذه الفروق أو الوجوه ذكرها كثيراً وليس لها غاية تقف عندها ونهاية لا نجد لها ازدياد بعدها، وقد نص الجرجاني على معنى التحويل والتوليد عندما بيّن أن المعاني النحويةمثل سبيل الأصباغ التي تعمل منها الصور والنقوش، واختلاف النظرة للقارئ لهذه الألوان.[1] ونص الجرجاني على أهمية المعنى في تشكيل التركيب، كون التحليل اللغوي يهمل المعنى الذي يكون مثل وصف تركيب السفن دون أن نشير إلى البحر، حيث يقول: "إن النظم ليس شيئاً غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم، وأنك ترتب المعاني في نفسك ثم تحذو ترتيبها الألفاظ في نطقك[2]".

كما تابع الجرجاني مناقشة الطاقات التحويلية القائمة على الحذف أو الإضافة في هذه التراكيب، بقوله: عبدالله قائم، إن عبدالله قائم، إن عبدالله لقائم، ويعني التركيب الأول الإخبار عن القيام والثاني عن سؤال لسائل والثالث الجواب عن إنكار المنكر.[3]

ثم يعرض التحويل في التركيب: زيد ينطلق، زيد منطلِق. فالأول عنده يعني الحدوث المتجدد وإخبار من يعلم بأن هناك انطلاقاً، أما التركيب الثاني فيعني ثبات الحدث ودوامه، والتأكد من أن الانطلاق كان من زيد، وهذا يتشابه مع عناصر التحويل لدى تشومسكي[4].

أما فيما يتعلق بالبنية العميقة والبنية السطحية في التركيب، فقد تناول الجرجاني مثالاً يعين على إيضاح هذا المفهوم الذي ذهب إليه تشومسكي، فيقول: "إذا قلت ضرب زيد عمراً يوم الجمعة ضرباً شديداً تأديباً له، فإنك تحصل من مجموع هذه الكلم لتفيد أنفس معانيها، وإنما جئت لتفيد وجوه التعليق التي بين الفعل الذي هو ضرب وبين ما عمل فيه، والأحكام التي هي محصول التعلق". ويبرز في كلام الجرجاني مفهوم البنية السطحية والبنية العميقة التي أشار إليها تشومسكي، ويقول الجرجاني: "فإنك تحصل من مجموع هذه الكلم على مفهوم هو معنى واحد لا عدة معانٍ".[5] فالعلاقة بين تشومسكي والجرجاني تلتقي عند مراعاة النمط الخاص للعلاقات داخل النظام اللغوي، والمحافظة على نظم الكلام بتحويل القاعدة النحوية التي تحافظ على قانون النحو من أن المبتدأ هو ما يبتدأ به الكلام، وبهذا لامس الجرجاني ما قال به تشومسكي من أن الجمل هي الوحدة اللغوية الأساسية فيها بنية عميقة وبنية سطحية، وما يحدث للجملة من تقديم وتأخير أي تحويل.

- لقد أحاطت نظرية عبد القاهر الجرجاني بجميع الجوانب اللغوية خصوصا حينما أقرت

1ينظر: ، عبد القاهرالجرجاني ، دلائل الإعجاز، ص74.

2نفسه ص454

3نفسه ص 53

عناصر التحويل عند تشومسكي هي:الحذف ،الزيادة،الإحلال،التمديد،الاختصار،إعادة الترتيب. ينظر:الراجحي،عبده،النحو العربي والدرس الحديث،دار النهضة،بيروت،لبنان ،1979،ص140

عبد القاهر الجرجاني،دلائل الإعجاز ص265

أن لا مزية إلا باجتماعها وتكاملها بدءا من المستوى الصوتي والتركيبي والدلالي "ويستطيع الدارس أن يسمي كلّ هذا الجهد عند عبد القاهر في هذه المستويات بالتركيب اللّغوي، الذي يراعي النمط الخاص بالعلاقات داخل النّظام اللّغوي، الذي يحافظ على الملاءمة التي تعني العلاقة التي يقيمها كلّ مستوى مع غيره من المستويات داخل النظام الواحد".[6] وهو ما يوضحه قوله قوله:"معلوم أنّ ليس النّظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض... و الكلم ثلاث: اسم وفعل وحرف، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة، وهو لا يدعو ثلاثة أقسام تعلق اسم باسم وتعلق اسم بفعل وتعلق حــرف بهمـا"[7]وفي كلّ هذه الصور يعطي التركيب اللّغوي مجموعة من العلاقات النّحوية التي تتولد عنها المعاني التي يراها عبد القاهر في دلالات الكلم، وذلك بحضور الارتباط الضروري للمسند والمسند إليه الذي يتحكم فيهما التركيب اللّغوي العام.... ويكون عبدالقاهر بهذا المنهج،وبهذا التعليل النّحوي العلمي لفنّ القول قد سبق الكثير من الدارسين في هذا المجال، في الجانب المحدد، ولامس اتجاه مدرسة النّحو التحويلي والتوليدي التي يمثلها تشومسكي"[8]، والذي أغرق في الوصف، فميّز بين "الوصف اللّغوي" و"الوصف البنيوي"، إذ يتعامل الأول مع بنى سطحية يجزّئ وحداتها ويعددها ويصنفها.وهذا يعني أنه يدرس علم الأصوات "Phonetics" والفونولوجيا "Phonology" والمورفولوجيا"Morphology" فيما يقوم الآخر بوصف التحويلات التي توصل إلى البنى السطحية"[9]وقد أصبح علم النّحو"Syntax" -عند تشومسكي- ليس دراسة مجموعة نماذج من الجمل في لغة من اللغات، بل هو نظام قائم في عقل إبن اللّغة يكتسب من الطفولة، ومهمة النظرية اللّغوية هو الكشف عن هذا النظام" [10]

وتعتمد مدرسة تشومسكي على أسس لامست إلى حدّ كبير منهج عبد القاهر، وهي كالآتي:[11]

-اعتبار الجملة هي الوحدة اللّغوية الأساسية، ويميّز فيها بين البنية الظاهرية (السطحية) والبنية العميقة، وتنظم القواعد التحويلية العلاقة بين البنية العميقة والبنية الظاهرية (السطحية) للجملة.

-مراعاة التغيرات التي تقع في الجملة من تقديم وتأخير من موضع إلى موضع، وتميّز بين هذه التغيرات وما يترتّب عنها من تغيُّر جوهري في المعنى الذي ينجم عنه تحولات قواعدية. ويذهب عبد القاهر هذا المذهب في كتابيه: "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" فيميّز بين ظاهرة التقديم على نيّة التأخير؛ لأنّه يؤدّي إلى تحولات قواعدية وبين التقديم الذي هو ليس على نيّة التأخير؛ لأنّه يؤدّي إلى تحولات قواعدية وهو مذهب تشومسكي نفسه.

وقد تناول عبد القاهر الجملة الظاهرية والجملة العميقة من حيث هي بنية ذات قابلية في استظهار دلالات متباينة في المعنى، على نحو ما توسّع فيه باب الاستعارة.

-ينطلق أصحاب المنهج البنيوي من الجملة باعتبارها وحدة جزئية ثمّ يذهبون على إثرها إلى تعميم النتائج في القاعدة والنظرية، بينما نظرية عبد القاهر تنطلق من النص الأدبي باعتباره وحدة كلّية، فتحلل أجزاءه وتحدد نتائجه، فنظرته المنهجية أنّ الكلّي هو الذي يستدعي

6محمد عباس، الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني، ص:28.

.7عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص:4

8 ينظر: محمد عباس، الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني، ص:29، 30.

9حلمي خليل: العربية وعلم اللغة البنيوي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية،1987، ص:171

10عدنان حسين قاسم: الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العربي،ص:60

محمد عباس، الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني، ص:30-32.[11]

الجزئي، وكلما كان الكلّي سليما في بُنيته في الفكرة التي يعبّر عنها تبع ذلك سلامة كلّ جزئية من جزئيات هذا الكلّي. وتعتبر هذه من المفارقات التـي تميّز كلا المنهجين"
والدارس لمنهج عبد القاهر، لا يفوته "أن ينوّه باتّساع نظرية عبد القاهر بشموليتها وتناولها المنهجي للدرس الأدبي واللّغوي معا، وفي احتوائها للقاعدة النّحوية وتطويعها في معالجة الخطاب الأدبي بقطبيه الشعري والنثري على السواء والاعتماد على هذه الرؤية في المنظور النّقدي قاطبة"[12]
في حين يصّب رواد البنيوية – دي سوسير و تشومسكـــي- وغيرهم قصارىاهتمامهم على متابعة الدرس اللّغوي بمفرده، فيبحثون في ظاهرته وقوانينه وقواعده، ومن هنا كان "التفوّق حليف عبد القاهر الذي جعل من النّص الأدبي ميدانه الفسيح في استدراج الفرضيات، واستنتاج القاعدة أو النظرية، وخصّ بجهوده (نظرية النّظم)، التي تتوافق في اتساعها لتشمل الدراسة الحديثة في أدب (الأسلوبية) وتثبت علاقتها بالنّظم"[13]

[12] نفسه ص32
[13] ن م،ن ص